مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧٥/٦/٦

القناة والفن

ان اهم حدث فنى كان لقناة السويس الفضل فى خلق ظروف مولده هو بلا شك اوبرا « عايدة » للموسيقى الايطالى « فردى » .. فمنذ ظهورها حتى اليوم وما بعد اليوم تدوى فى اركان العالم انغامها ، مقترنة بذكرى القناة .. وكأن مصر قد كتب لها القدر فى سجل الخلود ان تكون هى قلب المعالم حقا منذ فجر التاريخ .. ومن هذا القلب يخرج كل ما ينير ويلهم .. فهى الخالقة بنفسها للحضارة المضيئة فى أوقات صحونها .. وهى الملهمة لغيرها بالخلق عنها فى فترات رقدتها .وكانت مصر فعلا فى رقدتها الفنية والادبية يومذاك ، فلم يكن من الممكن ان تنتج فى هذه المناسبة عملا ادبيا او فنيا يبقى على الزمان كما بقيت اوبرا « عايدة » .. لقد ذهبت الاحتفالات الباذخة التى اقيمت يوم افتتاح القناة ولم يبق منها صدى ، ولم تزل موسيقى « عايدة » تطرب بغنها الاذان .. هذا هو خلود الفن ..

بقلم

توفيق الحكيم

مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

ولقد كانت مصر سباقة فى الابداع الفنى الخالد ٠ فما بالها نامت فى ذلك اليوم ؟ ٠٠ ليس الذنب ذنبها ٠٠ ان الامم كالافراد لها ليل ونهار ٠٠ فلا نسألها اذن ان تنتج للعالم فنا باقيا فى تلك الايام ٠٠ بل ان الذين وصفوا احتفالات القناة فى ذلك العهد وطابعها العالمى ، لم يذكروا شيئا من الاحتفالات الشعبية بطابعها المحلى ٠ واذا كانوا قد فعلوا فالصورة لا تخرج عن صورة احتفالات الموالد ، بما فيها من حواة وقرداتية وباعة الحمص وحب العزيز والبهلوانية والدراويش والاذكار والبنادير ورقص الغوازى والطبل والمزمار البلدى وشاعر الربابة وجماعة « أنا الاديب الادباتى حالى حال القرداتى » وهلم جرا ٠٠ أما شعراء الفصحى فلعلهم كانوا وقتئذ بعيدين عن استلهام الاحداث القومية ، مشغولين بالقوافى والنماذج التقليدية ٠٠٠ لم يكن قد ظهر بعد شاعر فى حجم شوقى ، والا لكانت بقيت لنا قصيدة فى فتح قناة السويس تصف لنا وصف العيان ما حدث وكان ، وتعبر عما شعر به المعاصرون فى تلك الايام ٠٠٠ **لم يكن اذن لمصر وقتئذ اللسان الذى يصف ويعبر ٠٠ ولكن كانت لها اليد التى تعمل وتفتح ٠٠٠**

اذا افترضنا ان الفن فى مصر كان يستطيع التعبير فماذا كان يمكن ان يقول ؟ ٠٠ هل كان ينعى خسائر مصر فى الانفس والاموال ، أو كان يشيد بالخير المنتظر للبشرية وما سوف يتحقق لها من آمال ؟ ٠٠ يبدو لى ان مصر تعرف دورها المقدر لها دائما فى تاريخ البشرية : وهو انها المضحية على الدوام من أجل الانسان والانسانية ٠٠

منذ فجر التاريخ وهى تفعل ذلك ٠ منذ فقدت عشرات الالوف من الارواح فى بناء الهرم ٠٠ ذهبت الضحايا ليبقى المعنى الخالد وهو قدرة الانسان على تشييد معجزة فى فن البناء تغالب بصمودها الفناء ٠٠ فى حين أفنت قنبلة هيروشيما عشرات الالوف من الضحايا دون ان تترك بعدها اثرا فنيا خالدا تجد فيه الانسانية العزاء ٠٠ وفقدت مصر عشرات الالوف من الارواح فى حفر قناة السويس ولكن بقيت بعد ذلك القناة مجرى للخير والنماء وشريان دماء للقوة والثراء ، على حساب مصر نفسها حتى الان ٠

بل ان تضحيات مصر فى الانفس والاموال من اجل شق القناة اقل بكثير من تضحياتها المستمرة بامنها واستقلالها على مذبح الاطماع الاستعمارية والمنافسات الدولية ٠٠ ولم تزل مصر الى اليوم وربما الى الغد تقوم بهذا الدور ، المجحف لها المثمر لغيرها ، وقلما نجد فنانا تخرج نغمات السخط والضيق والندم وكأنما صنع لها قدرها المكتوب عليها من الاوتار ما يخرج دائما الحان السماحة والاستبشار ٠٠

ولكن ٠٠٠ هل كان الفن المصرى مع افتراض نضجه وقدرته على التعبير الرفيع يمكن ان يتجه الى استلهام قناة السويس قبل ان يبدأ باستلهام روح مصر نفسها ؟ ٠٠ ان استجلاء شخصية مصر ونفض التراب عن ملامحها كان شغل الفن الشاغل منذ صممت مصر على ان تنهض من رقادها ٠ كما ان هذا الفن نفسه أيضا كان فى حاجة الى تجديد وسائله وقوالبه والارتفاع

بأدواته وأساليبه والرقى بمعانيه ومراميه ، والى جانب هذا كله كان عليه ان يقنع المجتمع باهميته وقيمته وجديته ، كى ينتقل من عصر « الاديب الادباتى » الى عصر « الاديب المفكر »

وأن يرغم الحكام على احترامه والاعتراف له بالمكانة الاجتماعيه اللائقة ، بعد ان كان مكانه دائما فى صفوف التابعين والمكلفين بالترفية ، وهو وضع لم يتغير تغيرا بارزا الا منذ سنوات قليلة ، منذ اقدمت ثورة ١٩٥٢ على اهداء القلادة المخصصة لرؤساء الحكومات واولياء العهد الى أدباء وفنانين ، فاهديت القلادة الى طه حسين وتوفيق الحكيم فى عهد عبد الناصر ، كما اهديت الى أم كلثوم وعبد الوهاب فى عهد السادات ... ومع ذلك فان قناة السويس لم تكن منبع الهام ادبى وفنى حتى اليوم لسبب آخر وهو انها لم تقنع احدا من المصريين بانها ملك لمصر .. فقد كانت فى ارض مصر ولكن مصائرها فى ايدى الاجانب ، حتى لقد قيل ذات يوم فى تساؤل : هل مصر ملك للقناة أو القناة ملك لمصر ؟ .. وحتى عندما أممت عام ١٩٥٦ ، فان ما جره التأميم من تهديد بضياع استقلال مصر ذاتها جعل الشاغل الاصلى لكل مصرى هو الحفاظ على مصر قبل القناة .. اذن فالفن المصرى حتى اليوم كان مهموما بكيان مصر نفسها قبل كل شىء ...

●

على ان امتلاك قناة السويس بقرار التاميم لم يكن فيما يبدو مثيرا للفن المصرى بدرجه كبيرة .. ولكن امتلاك القناة بقوة السيف هو الذى يمكن أن يثير كل فن .. وعلى الفن المصرى خاصة ان يشحذ همته منذ اليوم كى يجد التعبير القوى عن هذا الحدث التاريخى .. واذا كانت مصر تحتفل اليوم بفتح القناة ، فان مجرد فتحها مرة أخرى لم يكن هو المبرر لمثل هذا الاحتفال .. انما المبرر الذى يشعر به الشعب بفرح ، والمعنى الذى يستقر فى النفس بزهو : هو ان فتح القناة هذه المرة قد تم بحد السيف وليس باعلان قرار ...

وليس فى تاريخ مصر المطويل سوى امثلة قليلة كان سيفها هو الذى طرد لها المحتل والغاصب واعاد لها الحق المسلوب ...

اذن فهى صفحة من التاريخ المصرى جديرة بان تلهم الفن ابدع الاثار . □